الفصل الخامس

الجواسيس يأتون من البرد

أمضى إيجور شادخان أربعة أشهر عام 1991م بتصوير فيلم وثائقي في نوريلسك، المدينة الصناعية قارسة البرد في أقصى شمالي سيبيريا. هذا المكان، فوق الدائرة القطبية الشمالية، الذي لا يكاد يصلح للسكن، وتكمن تحته بعض المعادن الأكثر قيمة على الأرض: النيكل والنحاس والمعادن الأخرى، وبدءًا من الثلاثينيات شيد الاتحاد السوفييتي معسكر اعتقال، ومن ثم مدينة لاستخراج الثروات من المناجم التي امتدت لأميال تحت سطح الأرض، وكان شادخان هناك لتوثيق الحقيقة المظلمة التي ما كان لها أن تُكشف قبل الجلاسنوست: لم تكن نوريلسك فتحًا سوفييتيًّا مجيدًا للطبيعة؛ كانت جزيرة مجمدة مهجورة من معسكرات العمل في أرخبيل الغولاغ، بنيت على عظام أولئك الذين فقدوا حياتهم هناك.

يبلغ شادخان الواحدة والخمسين من العمر، ولا ينقصه شيء سوى أنه أصلع، وهو مواطن بسيط من لينينجراد، حقق شهرة من إخراجه لمسلسل تلفازي (اختبار للكبار)، الذي بدأ في عام 1979م وظل مستمرًّا حتى عام 1991م. في ذلك المسلسل، صوَّر مقابلات مع مجموعة من عشرة أطفال وأولياء أمورهم، يرسمون تطور حياتهم على مر السنين. كانت موهبة شادخان تتمثل في قدرته على التحدث؛ فقد أثار آمال من التقاهم في المقابلات اللطيفة التي تجنبت الموضوعات التي تغضب جهاز الرقابة خلال سنوات بريجنيف، ولكن بدت مقابلات مضيئة على الرغم من ذلك، وكان يعتزم تحويل مقابلاته مع الناجين من معسكرات العمل في نوريلسك إلى مسلسل جديد سُمي (الثلج: قدري)، ولكن المدير العام لقناته، ديمتري

روجديستفينسكي، كان في ذهنه شيء آخر له أولًا؛ فطلب من شادخان تصوير لمحة عن موظفي عمدة بلدية لينينجراد، إذ كان روجديستفينسكي، الذي استمر ليؤسس شركة إنتاج تلفزيوني تدعى (الفيديو الروسي)، يعتقد أن هذا العمل سيكون جيدًا ما دام أن العمدة يمتلك المحطة فعليًّا، وقد اقترح على شادخان أن يبدأ العمل مع مساعد يشغل منصبًا مهمًّا، وقد سأله شادخان: «من بوتين هذا؟»[1].

عندما عاد شادخان من نوريلسك في ذلك الخريف، كان مسقط رأسه قد أصبح فجأة مدينة مختلفة، إذ لم تعد تحت سيطرة الحزب الشيوعي، وإنما تحت سيطرة الديموقراطيين، وقد عجَّل انهيار انقلاب أغسطس/آب بانهيار الاتحاد السوفييتي، وكان في الأسابيع الأخيرة من وجوده، وألقي القبض على المتآمرين، ومن ضمنهم فلاديمير كريوتشكوف، رئيس الـ(كي جي بي)، التي تشظت بعد ذلك إلى إدارات وأقسام مختلفة تحت السيطرة السياسية لزعماء روسيا الجدد، وأُلغيت المديرية الرئيسة الخامسة، التي كانت تصطاد المنشقين عن النظام. وعاد جورباتشوف إلى منصبه، ولكن رئيسًا لبلد انشطر إلى خمس عشرة دولة. وبات البرلمان الروسي في موسكو الذي يضم مجلس النواب ومجلس السوفييت الأعلى المصغر، ويتألف من 252 عضوًا، هو اليوم السلطة التشريعية على الأرض بلا منازع، وقد صادق في 6 سبتمبر/أيلول رسميًّا على نتائج الاستفتاء الذي أجرته لينينجراد قبل ثلاثة أشهر، وعاد اسم المدينة مرة أخرى سانت بطرسبورغ، حيث عمَّدها بطرس الأكبر قبل ثلاثة قرون تقريبًا. ورَأَس سوبتشاك احتفال إعادة التعميد الرسمي يوم 7 نوفمبر/تشرين الثاني، وهو اختيار مدروس إذ يوافق الذكرى الرابعة والسبعين للثورة الروسية.

بعد الانقلاب حظر بوريس يلتسين، بصفته رئيسًا لروسيا الجديدة، الحزب الشيوعي، فاستغل سوبتشاك الفرصة لدفن الحزب في مدينته أيضًا، فأوعز بالاستيلاء على سلطة الحزب، وأصوله، وبنيته التحتية، ومن ضمن ذلك مقره في معهد سمولني، الذي كان ديرًا في القرن الثامن عشر، ثم أكاديمية الفتيات التي أسس فيها لينين حكومته البلشفية، وأصبح هذا المَعلَم الباروكي اليوم مكتبه، ويرمز هذا التحرك لـ(انتصار القوى الديموقراطية) في

روسيا الجديدة، لكنه يشير أيضًا إلى «نية سوبتشاك الاستئثار بالسلطة الحقيقية في بداية العصر ما بعد الشيوعي»[2].

عيّن سوبتشاك بوتين رئيسًا للّجنة الجديدة في المدينة للشؤون الاقتصادية الخارجية، واستقر بوتين في مكتب جديد في سمولني، وعلى خُطا سوبتشاك، استبدل بصورة لينين التي كانت تزين مكاتب الرفاق نقشًا لبطرس الأكبر. في منصبه الجديد، انضم بوتين لسوبتشاك في محاربة جهود المواقع الخلفية للحزب الشيوعي لخنق السلطات الجديدة في المدينة، منفِّذًا مراسيم سوبتشاك التي أوقفت الموارد الإضافية للحزب.

بيت التنوير السياسي، ذلك الصرح الحديث الذي يكسوه الرخام والذي يمر من ديكتاتورية شارع البروليتاريا من سمولني، ظلت ملكيته تعود للحزب الشيوعي مدة طويلة، لكن قرر سوبتشاك تحويله إلى مركز الأعمال التجارية الدولية، والذي بدأ في وقت قريب بجذب رجال الأعمال السوفييت الدهاة الذين شاهدوا حقًّا إمكانية التجارة والأعمال في روسيا الجديدة. وكان من بينهم رجال مثل ديمتري روجديستفينسكي من القناة التلفازية الحكومية، وفلاديمير يانكونين الدبلوماسي التجاري السابق في الأمم المتحدة. فالتواصل معهم من خلال أروقة السلطة سيدفع سوبتشاك لتعيين ضابط المخابرات السابق غير المتحيِّز؛ وهو أونبريبوسيسينج في الموقع.

استمر فصيل من الحزب الشيوعي في المدينة في احتلال جناح من المركز التجاري الجديد، ورفع أعضاؤه بتحدٍّ مطرقة الاتحاد السوفييتي الحمراء والمنجل فوق سطح العمارة، وكان ذلك فعلًا رمزيًّا لا أكثر ولا أقل، لكن بوتين أمر بإزالة ذلك العلم، إلا أن الشيوعيين رفعوا علمًا آخر في اليوم التالي، ومرة أخرى أمر بوتين بإزالته. سارت الأمور على هذا المنوال وقتًا طويلًا حتى نفدت الأعلام المناسبة التي بحوزة الشيوعيين وبدؤوا بتعليق تلك المصنوعة يدويًّا، وكان أحدها يحمل اللون البني الداكن بدلًا من اللون الأحمر. في نهاية

المطاف، طفح كيل بوتين، فأمر العمال بإزالة سارية العلم بأكملها[3]، وردد بوتين ما قاله سوبتشاك، من أنه لم يعد عنده كثير من الصبر على المعارضة.

فكرة الفيلم الوثائقي التلفازي عن موظفي البلدية كانت فكرة سوبتشاك، الذي فهم الدور الذي يمارسه التلفاز في صعوده إلى مكانة بارزة في كونغرس نواب الشعب، وكان يعتقد سوبتشاك أن ظهور مديريه في العمل سيرسخ فكرة أنه هو، لا مجلس المدينة، الشخصية المحورية للسلطة في سان بطرسبورغ الجديدة. لكن شادخان لم يكن متحمسًا، فقد انتهى من فوره من تصوير المقابلات مع الناس الذين أمضوا سنوات يعانون من الغولاغ (معسكرات العمل) بسبب إساءة استعمال السلطة، وأُرسل اليوم إلى المبنى الذي كان منذ أسابيع قليلة مقرًّا للحزب الشيوعي المسؤول عن محنتهم. وقال إنه ذهب إلى هناك ذات مرة، ووجد أروقته عقيمة تقشعر منها الأبدان، واليوم وجده يعج بمجموعات من الناس لا يتكلمون اللغة الروسية وحسب، وإنما اللغات الأجنبية أيضًا، ومن مختلف المواقع السياسية.

الرجل الذي استقبله في مكتب بوتين في الطابق الأول في سمولني كان إيجور سيتشين، الذي كانت منزلته المتواضعة وسلوكه يناقضان أسفاره حول العالم وفصاحته بالبرتغالية[4]. كان زميل بوتين في الجامعة، وعمل في موزمبيق ثم في أنجولا في الثمانينيات مترجمًا للمستشارين العسكريين السوفييت، على الرغم من أن كثيرين منهم يشتبهون في أنه يعمل لحساب المخابرات أو الاستخبارات العسكرية. أصبح مساعدًا مخلصًا لبوتين الذي كان مكتبه- ومن ثم مكتب سوبتشاك- ممتلئًا بالرجال مثل سيتشين، وقدامى المحاربين في الحرب الباردة، ومن هاموا على وجههم بعد أن انهارت الإمبراطورية السوفييتية. أوضح بوتين فكرة سوبتشاك عن الفيلم الوثائقي لشادخان، وأطرى عليه مشيدًا بعمله عن (اختبار الكبار)، لكنه حاول أيضًا أن يضع شروطًا، طالبًا منه أن يطلع على الأسئلة مسبقًا. رفض شادخان ذلك وقال له: «هناك قاعدة واحدة: يجب ألا تعرف الأسئلة، وأنا لا أعرف الأجوبة»، فخضع بوتين[5].

استمرت المقابلات أيامًا عدة في نوفمبر/تشرين الثاني عام 1991م، وكان بوتين يبدو أصغر من التاسعة والثلاثين التي بلغها، فشعره لا يزال أشقر ناعمًا وغير كثيف، وكان قصير القامة ونحيفًا، ومن ثم فضعف بنيته لا يتناسب وقاعات اللجان الكبرى التي كان يصور فيها شادخان فيلمه، ولذلك حاول شادخان في مكتبه- ما أمكن- أن يتفادى ذلك بتقريب كاميرته منه، وتركيز عدستها على عمق عينيه الزرقاوين وشفتيه الناعمتين، ووجنتيه اللتين يتغيَّر لونهما بشعر ذقنه الخشنة.

بدأ معه بأسئلة عادية عن عمره وعائلته، وتعليمه، وبرجه؛ («الميزان، أعتقد بأنه برج الميزان»، قال بوتين، «ولكني لست متأكدًا»)، وسأله عن كلبه، وعمله، وسياسة روسيا الجديدة، ولن يتأخر كثيرًا السؤال البديهي الذي يتناول سيرته المهنية قبل الحكومة.

ادعى بوتين، بعد سنوات، بأنه رتب هذه المقابلة بنفسه، ليكشف عن علاقته بمنظمة مكروهة فككت فيما بعد، وعلى الرغم من أن نقاد سوبتشاك وغيرهم حذَّروا بوتين من أن الكشف عن خلفيته السرية وعمله بـ (كي جي بي) قد ينقلب عليه أو على رئيس البلدية، فقد كان يعتقد أن الكشف عن حقيقة عمله الأساسي قد ينزع فتيل المسألة برمتها. ربما كان شادخان مجبرًا أكثر مما كان يتوقع بأن يكون (عبد الاستعارة)، فقد صور مساعد العمدة الشاب يقود سيارته الفولغا، مضيفًا إلى المشهد سوناتا البيانو من (سبع عشرة دقيقة من الربيع)، المسلسل التلفازي المحبوب من عام 1973م، المقتبس من رواية مكتوبة، مثل الدرع والسيف، بالتعاون مع الـ (كي جي بي)[6]، وكان بطله عميلًا مزدوجًا في ألمانيا النازية اسمه **ماكس أوتوفون سترلتز**، وكان هذا المسلسل من مسلسلات الرعب والتجسس التي عشقها بوتين إبان العصر السوفييتي[7]. وعندما سأله شادخان عن مهنته أمام الكاميرا، بدا دفاعيًّا وفظًّا.

قال بوتين: «يبدو أننا لا نستطيع ترك هذا الموضوع».

أجابه شادخان: «سوف توافقني الرأي بأن المرء لا يمكن أن يلتقي بضابط مخابرات بكل تلك السهولة في كثير من الأحيان، حسنًا، على الأقل مع شخص يعترف أنه واحد منهم».

قال بوتين بغموض: «أنت لا تعرف بتاتًا، قد تستطيع مقابلتهم في كثير من الأحيان، ولكنه يعرف ذلك، وأنت لا»[8].

استمر ظهوره في مقابلة مطولة معه نشرت يوم 25 نوفمبر/تشرين الثاني في صحيفة شاس بيك، أو راش أور[9]. لم يمح ماضيه، لكنه أراد أن يميز حياته عن جرائم الـ(كي جي بي)، وعن الحروب الصليبية على المعارضين للانقلاب الفاشل، وقال في المقابلة إن الـ (كي جي بي) قد أصبحت (وحشًا)، ولم تعد تنفذ «المهام التي أنشئت من أجلها»؛ وهي حماية الدولة من أعدائها الخارجيين. وأصرَّ على أن عمله ينحصر في الاستخبارات الأجنبية، ولا علاقة له بالقمع الداخلي الذي تنفذه الـ(كي جي بي). وأكد أيضًا أنه لا توجد وكالة مخابرات في العالم تستطيع أن تعمل من دون عملاء سريين، «هذا ما كان، وهكذا هو الأمر، وهكذا سيكون». وذكر أن الماضي أصبح وراء ظهره، لكن لم يشعر بأي ندم حول مهنته التي اختارها بنفسه.

سألته الصحفية ناتاليا نكيفوروفا: «ألا تتوب عن ماضيك؟».
أجابها: «لا، لن أتوب. أتوب عن الجرائم، وأنا لم أرتكب أي جرائم. أنا لا أسوِّغ، وإن كان التسويغ أسهل من اتخاذ قرار حاسم»، وكان يعني بـ(القرار الحاسم) استقالته من الـ(كي جي بي)، التي أكدها مرارًا وتكرارًا.

بعيدًا عن عدم أهليته في الخدمة العامة، فقد أعلن أن خلفيته، وتجربته، وطلاقته في اللغة الألمانية، واطلاعه على الاقتصاد الدولي، ستخدم احتياجات الديموقراطية الجديدة لمدينته وروسيا. وعندما سألته نكيفوروفا عن أن (الشركاء الدوليين) في المدينة سينظرون بارتياب لوجود جواسيس الـ (كي جي بي) بين موظفي سوبتشاك، أجاب ببساطة أن الرئيس الأمريكي، جورج بوش الأب، قد شغل سابقًا منصب مدير وكالة الاستخبارات المركزية، ولم يجرده أحد من أهليته لتولي المنصب.

هكذا كانت الأيام العنيفة التي أعقبت أحداث أغسطس/آب؛ اختلط كل شيء، وأي شيء يبدو ممكنًا، حتى الحديث عن الأسرار التي بقيت طي الكتمان مدة طويلة، وصدَّ الناس

الانقلاب دون عنف- ما عدا ثلاث حالات وفاة في موسكو- حين رفضت الصفوف الأولى من التسلسل الهرمي السوفييتي قبول نتيجة الصراع على السلطة؛ وبذلك سنحت الفرصة لروسيا الجديدة لتكون حرة، وتعيش دون خوف، وتكون صادقة وخاضعة للمساءلة، لتعد نفسها لحقبة جديدة.

تواجه روسيا صعوبات اقتصادية، ولكن الوريث الضعيف للاتحاد السوفييتي يمكنه اليوم أن يقيم حكومة ديموقراطية، وينهي عزلة الحرب الباردة، ويفتح نفسه على أوروبا وبقية العالم. وفي أول اقتحام له لدائرة الضوء العام، والذي لم يكن يخطر ببال أحد قبل أشهر فقط، صور فلاديمير بوتين نفسه بأنه ديموقراطي نذر نفسه للديموقراطية، ولكن حتى ذلك الحين، في فجر الديموقراطية في روسيا، حذر من أن حتمية الدولة القوية ورغبة الشعب في قبولها، وحتى التوق للعيش فيها، بقيت جزءًا من المزاج العام الروسي. «حتى لو كان ذلك محزنًا، وبغض النظر عن فظاعته، أعتقد أن تحولًا نحو الشمولية مدة من الوقت ممكن في بلدنا. والخطر- على الرغم من ذلك- يجب ألا ينظر إليه على أنه كامن في الأجهزة التي تعمل على تمكين القانون وأجهزة الشرطة، أو حتى الجيش، بل يكمن الخطر في العقلية، عقلية شعبنا، في العقلية الخاصة جدًّا لدينا. يبدو لنا جميعًا- وسأعترف أن ذلك ينطبق علي في بعض الأحيان أيضًا- أنه بفرض نظام صارم بقبضة حديدية، سوف نبدأ جميعًا حياة أفضل، ومريحة أكثر، وفيها مزيد من الأمان. في واقع الأمر ستمر الراحة بسرعة خاطفة؛ لأن تلك القبضة الحديدية ستبدأ بسرعة جدًّا تخنقنا»[10].

سوبتشاك وصل إلى ذروة شعبيته وسلطته بعد الانقلاب، وكان أبرز ثاني سياسي روسي بعد يلتسين[11]، وكانت رؤيته لمدينته كما طموحه الشخصي؛ فقد أراد إعادة إنشاء مجد عاصمة الإمبراطورية، وتنشيط روائع المدينة المعمارية، ومعالمها، وقنواتها الأنيقة. وقد اقترح منطقة اقتصادية حرة لجذب الاستثمارات الأجنبية، إذ أراد أن يعيد لمدينة لينينجراد القديمة ألقها لتكون مدينة أوروبية (جديدة)، وعاصمة تجارية وثقافية تنافس موسكو في تفوقها الوطني والدولي.

التقى وزير الخارجية الأمريكي، جيمس بيكر، الذي وصل إلى المدينة يوم 15 سبتمبر/أيلول، وبعد خمسة أيام سافر سوبتشاك إلى لندن، مع بوتين، للقاء رئيس الوزراء البريطاني جون ميجور، وكانت أول تجربة لبوتين في الغرب. وفي أكتوبر/تشرين الأول سافر سوبتشاك إلى ألمانيا الغربية لعقد اجتماع مع المستشار هيلموت كول، وكان بوتين المترجم الحاذق له، وسرعان ما انضم سوبتشاك لأحد عمالقة الحرب الباردة البارز؛ هنري كيسنجر، الرئيس المشارك في لجنة دولية للخبراء ورجال الأعمال المكلفة بإيجاد مستثمرين يحولون معامل الدفاع المنهارة في المدينة، وغيرها من الشركات المصنِّعة، إلى شركات تجارية. عندما سافر كيسنجر إلى بطرسبورغ في أثناء زيارته، كان فلاديمير بوتين هو الذي استقبله في المطار، واقتاده إلى مقر البلدية، وتحدثا عن ماضيه في الـ (كي جي بي)، فقال كيسنجر له: «كل الشرفاء بدؤوا عملهم في الاستخبارات، ويسرني أنني فعلت ذلك أيضًا»[12].

كان سوبتشاك يقضي أوقاته في الخارج بقدر ما كان يقضيها في بطرسبورغ، وكان من المشاهير الدوليين الذين كتبت عنهم جريدة التايمز؛ لكونه أحد النجوم السياسية الصاعدة التي يمكن أن تحول روسيا إلى دولة حديثة مزدهرة بالديموقراطية وحرية السوق[13]، ولكن ما حدث بدلًا من ذلك كان مخيبًا للآمال، وأثار عجب أولئك الذين كانوا يأملون بمستقبل ديموقراطي لروسيا، إذ سرعان ما أهدر سوبتشاك رأسماله السياسي الهائل بتصرفاته المتغطرسة وحماقته الجريئة، ولاستيائه من مثقفي وليبراليي المدينة، ملأ صفوفه برفاق موالين للحزب الشيوعي[14]، واليوم بعد أن فقدت الـ(كي جي بي) مصداقيتها، لم تقدم بوتين فحسب، وإنما إمدادات متواصلة من قدامى المحاربين لملء الصفوف المتنامية من موظفي سوبتشاك.

وعلى الرغم من كل أحاديثه عن الديموقراطية كان سوبتشاك يتودد للمسؤولين الأمنيين الذين بقوا في مناصبهم؛ فمثلًا تولى فيكتور شيركيسوف- زميل بوتين وصديقه المقرب،

الذي عُرف بمحاكمة المنشقين عن جرائم مناهضة السوفييتية- أحد فروع الأجهزة الأمنية في بطرسبورغ التي انبثقت من الـ(كي جي بي) المنهارة ووزارة الأمن.

دوافع سوبتشاك لتوظيف المحاربين القدامى من الأمن سببت حيرة ونبَّهت الإصلاحيين في المدينة، لكن كان يساجل بأن المدينة بحاجة إلى مهنيين من ذوي الخبرة في الحكم، حتى وإن كان يعني ذلك مشاركة البيروقراطية السياسية والأمنية التي تعهد بتفكيكها ذات مرة. ولكي يضمن سلطته استعان بالرفاق، وليس بالديموقراطيين، وظل هذا يمثل المعضلة الرئيسة في روسيا لسنوات قادمة، فالإصلاحيون الشباب مثل الخبير الاقتصادي أناتولي تشوبايس، الذي قدَّم مقترحات مبكرة لإقامة المناطق الحرة في بطرسبورغ، سرعان ما وجدوا أنفسهم من دون وظائف أو مهمشين، وغادر تشوبايس إلى موسكو في الخريف، وانضم لبرنامج يلتسين للخصخصة، الذي جعل منه أحد أكثر الشخصيات الملعونة في روسيا الجديدة[15].

ما إن عزز سوبتشاك السلطة التنفيذية، حتى توترت علاقاته مع مجلس المدينة أكثر مما كانت عليه الصراعات الداخلية قبل انهيار الاتحاد السوفييتي، وعبَّر عديد من أعضائه- وبخاصة الديموقراطيين الأشد تحمسًا- عن استيائهم من ميوله الاستبدادية، وبحلول عام 1992م حاول المجلس عزله، وكانت تصرفات مساعده، فلاديمير بوتين، أحد تلك الأسباب.

واجهت المدينة عددًا من التحديات في شتاء عام 1991م؛ فكل شيء توقف، وأفلست المدينة، وتراجعت الصناعات العسكرية الثقيلة في المدينة، المترنحة أصلًا، مع انهيار عقود الأسلحة، وتسبب تفكُّكُ الاتحاد السوفييتي في قطع العلاقات الاقتصادية مع الدول المجاورة، والمستقلة حاليًّا التي كانت تمد ذات يوم لينينجراد بالمواد الغذائية والبنزين، وبات على المدينة- مع حلول فصل الشتاء- اللجوء إلى الاستفادة من احتياطي السلع المعلبة ريثما تصل أربعة آلاف طن من اللحوم الطازجة في يناير/ كانون الثاني.

موسكو، العاصمة، كان لها سلسلة توريد وموارد أفضل من بطرسبورغ، ونتيجة لهذا لن يكون للمحالِّ التجارية في بطرسبورغ سوى مستودعات هزيلة من المواد الغذائية خلال السنوات القادمة، وحذر سوبتشاك في نوفمبر/تشرين الثاني من أن نقص المواد الغذائية أصبح في حالة خطر[16].

ولسبب غير مفهوم حتى الآن، كان أحد قراراته لإحياء ثروة المدينة هو أن يحولها إلى لاس فيغاس جديدة، وكلف بوتين بهذه المهمة؛ فكانت النتيجة انتشار الكازينوهات وأوكار القمار في جميع أنحاء المدينة الجميلة ولكن الذابلة، مع أنه كانت هناك احتياجات أكثر إلحاحًا من ماكينات القمار. لم يكن ازدهار كازينوهات بطرسبورغ فكرة سوبتشاك وحده، وإنما التحول الديموقراطي في روسيا الذي سرعان ما اتخذه ذريعته الدائمة، وهو المظهر الوحيد الجلي لرأسمالية الروس الجديدة التي لطالما رفضوها عقودًا من الزمن. مرسوم سوبتشاك سعى- ظاهريًّا- لتنظيم هذه الصناعة الناشئة حديثًا، مع «الضرائب لتمويل البرامج الاجتماعية ذات الأولوية»[17]، لكنه أجاز أيضًا للمدينة توفير «المرافق اللازمة لتوطين الكازينوهات»، وهي السلطة التي استخدمها وأساء استخدامها في صناعات أخرى كذلك. وزَّع سوبتشاك حقوق الملكية كما كان يمنح القيصر الأراضي سابقًا، ومن ثم فعلى مدى العقدين المقبلين سيكون المشهد العام لمدينة بطرسبورغ، كما موسكو، أبنية مبهرجة من أضواء النيون واللوحات الإعلانية المغرية الواعدة بالثروات، وستخوض السلطات حربًا متواصلة على الجريمة المنظمة.

نفذ بوتين واجبه؛ فدرس طريقة الغرب في تنظيم صناعة القمار، وبات بإمكانه اليوم، من خلال السفر مجانًا خارج حدود الكتلة السوفييتية، أن يخوض تجربته الحياتية في أماكن عرفها فقط من التقارير الاستخباراتية. وفي جزء من تقصي الحقائق في ذلك الخريف، فقد سافر هو وليودميلا إلى هامبورغ، حيث زارا مع جمع من الأصدقاء ريبرباهن، المنطقة الشهيرة بأضوائها الحمراء في المدينة، وموقع أحد الكازينوهات فيها. وكان الأصدقاء الذين حدثوه هم من أصروا على أن يحضر عرضًا إيروسيًّا مثيرًا في أثناء وجودهم هناك،

وكانت تلك مقدمة إلى التطرف في الحرية الشخصية، والانغماس في الرذائل دون تضييق أخلاقي لأيديولوجية الدولة وتدقيق من الـ (كي جي بي)، وقد انطبعت تلك التجربة في ذهنه انطباعًا، جعلته يصف بعد عقد من الزمان هذه العروض بالتفصيل الممل، بدءًا من طولهن الفارع، وانتهاء بجسدهن العاري[18].

وكان استنتاجه أن أرباح الفجور يجب أن تكون عائدة للدولة، ومن ثم فقد فضل في البداية أن تكون صناعة القمار حكرًا على الدولة، على الرغم من أن قوانين روسيا الجديدة التي تكافح الاحتكار تنهى عن ذلك؛ أملًا في كسر قبضة الدولة على الاقتصاد، ولتجاوز ذلك أنشأت لجنة بوتين، بدلًا من ذلك، مشروعًا بلديًّا تشتري بموجبه 51 في المئة من أسهم كل الكازينوهات الجديدة المرخص لها في المدينة، وبهذا ستملأ الأرباح خزائن المدينة التي تفتقر إلى السيولة النقدية، وهكذا حصلت على أسهم بدلًا من تأجير المباني المملوكة لها، والتي أصبحت كازينوهات. وكان المحامون الذين يتولون تقديم المشورة للجنة بوتين من مستشاري جامعته: فاليري موسين، وديمتري ميدفيديف، وهو محام شاب ناضل من أجل سوبتشاك عندما رشح نفسه لمجلس نواب الشعب.

أثبتت المؤسسة أنها كارثة، إذ أدخل مضرب تنس عملاق المدينة في تحالف مع شخصيات في الظل تشمل ضباط مخابرات سابقين، ورجال عصابات[19].

أسست شركةٌ جديدةٌ في المدينة، تدعى نيفا تشانس، ما يقرب من عشرين كازينو، معظمها لم يحصل على تراخيص من الحكومة الاتحادية الجديدة التي شُكلت في موسكو، ومن ثم لم تتحقق الأرباح التي كانت تأمل بها المدينة، وعمد المديرون إلى غسل العائدات النقدية، وكتبوا تقارير بخسائر ومفقودات للسلطات، وهكذا فقد كسب المالكون الملايين، أما المدينة فلم تتلق أي شيء من ذلك. ويقول بوتين في وقت لاحق- مدافعًا عن دوره-: «كانوا يضحكون علينا».

أثبت إنشاء اقتصاد سوق منظم أنه أصعب بكثير مما توقعه بوتين، وكثير من المسؤولين الروس أيضًا، ولم تكن الأسس القانونية للرأسمالية قد وُضعت بعد، ومثل معظم المسؤولين لم تكن لديه الخبرة في إدارة الشؤون الاقتصادية بعد عقود من الخطط الخمسية وسيطرة الدولة، وقد أقرَّ بأن «هذا خطأ نمطي وقع فيه الناس الذين يواجهون سوقًا لأول مرة»، والناس الذين عانوا من الخطأ هم من «المتقاعدين والمعلمين والأطباء»[20]، لكنه لم يفعل شيئًا إزاء الخسارة الفاضحة لخزائن الدولة، لا في وقتها ولا في وقت لاحق، وسرعان ما أُثري الآخرون، مستغلين النظام القانوني والاقتصادي غير الناضج مع بعض المشتبه فيهم، وتواطؤ المسؤولين مثل بوتين.

وثمة أخطاء أخرى ارتكبها بوتين، سيكون لها عواقب كارثية مستدامة، وتخلق حالة من الهروب من العقاب الذي يفرضه الحكم في المدينة، ويزيد من عدم ثقة الجماهير بمطالب تطبيق مبدأ المساءلة. ففي 4 ديسمبر/كانون الأول 1991م، كتب بوتين رسالة إلى وزارة الاقتصاد الاتحادية في موسكو يطلب فيها الموافقة على المقايضة في الخارج- بمبلغ يزيد على 120 مليون دولار من منتجات الشركات التي كانت لا تزال مملوكة للدولة، تتضمن 750 ألف متر مكعب من الخشب، و150 ألف طن من النفط، و30 ألف طن من الخردة المعدنية، وكميات صغيرة من المعادن الأرضية النادرة كالنحاس، والألومنيوم، والإسمنت، والأمونيوم- بما يعادلها من اللحوم والزبدة والسكر والثوم والفاكهة[21].

في الشتاء الثاني واجهت المدينة نقصًا حادًّا، وفرضت تقنينًا مرة أخرى، وتفاقمت الأزمة عندما سمحت الحكومة الروسية بارتفاع الأسعار وفقًا لقوى السوق في بداية عام 1992م. وحتى عندما كان الغذاء متوافرًا كان بعيدًا عن متناول الفقراء الروس، ثم شمل ذلك الجميعَ تقريبًا، باستثناء الأكثر حظوة.

في الفيلم الوثائقي التلفازي، أظهر شادخان بوتين وهو يتحدث على الهاتف مع سوبتشاك حول الاستعدادات لعقد اجتماع مع يلتسين، وعندما أقفل الخط حرص على إظهار أن مكتب

رئيس البلدية يقدم أزمة الغذاء على كل الأولويات، وقال لشادخان إن طنَّين ونصف طن من السكر قريبًا ستُشحن من أوكرانيا، بالفعل، ومع ذلك بدا متضايقًا من الهدر والفساد، وقال: «هناك العديد من الزلّات بين الكأس والشفة»[22].

حين كان مكتب رئيس البلدية يتفاوض على صفقات المقايضة، وقَّع بوتين والنائب ألكسندر أنيكين، عشرات العقود، ذهب كثير منها لشركاتٍ أصحابُها- كما سيقول النقاد في وقت لاحق- كان لهم ارتباطات مع مكتب رئيس البلدية وبوتين نفسه، وقد كُتبت العقود من غير تدقيق، وكأن المشروع بأكمله مشكوك فيه من الناحية القانونية؛ إذ إن بعض الصفقات تم التفاوض عليها قبل أن يتلقى بوتين الموافقة على ذلك من الوزير الاتحادي المختص في موسكو. وكان للعقود عمولات عالية جدًّا، وصلت إلى 25–50 في المئة، وقد ذهبت هذه الأرباح الكبيرة، ظاهريًّا، لخزينة المدينة التي يفترض أن تكون مشروعًا كبيرًا لدرء الجوع، ولكن يبدو أن معظمها اختفى في ظروف غامضة.

وعلاوة على ذلك، كانت أسعار العقود وفقًا لأسعار الصرف الرسمية، المقدرة بأقل من قيمة السلع المصدَّرة، والأسوأ من هذا كله أنه لم يُستورد أي شيء تقريبًا مقابل ذلك، والعقد الوحيد الذي ذكرت التقارير أنه قد تحقق الوفاء به هو تسليم ناقلتين من زيت الطهي، الذي كان قد أبلغ بوتين بمضمونه حسب الأصول إلى موسكو، وكان الاتفاق إخفاقًا ذريعًا في أحسن الأحوال، وفي أسوأ الأحوال، كان عملية احتيال.

باشر مجلس المدينة، الذي كان في حالة حرب دائمة مع سوبتشاك، بالتحقيق، بقيادة مارينا سالي، الجيولوجية ذات الشعر الأشيب، وواحدة من الديموقراطيين الأكثر جرأة في المجلس. ركزت هي وزميلها، يوري غلادكوف، على اثني عشر عقدًا يمكنهما تلمُّس الحقيقة من خلالها، وهذه العقود وقَّع عليها إما بوتين أو أنيكين، مع أنهما يدركان بأن ما خفي أعظم. لم يكن هناك أي مناقصة عامة لهذه العقود التي تبلغ قيمتها الإجمالية 92 مليون دولار، ولم تكن هناك أيضًا أي قوانين واضحة تتطلبها المناقصات العامة.

بين يناير/ كانون الثاني ومايو/أيار، جمع سالي وغلادكوف الأدلة، وأخذا الإفادات، وجمعا كل ذلك في تقرير مطول قُدم إلى كل أعضاء المجلس، وقد تعاون بوتين مع التحقيق، ولكن على مضض؛ لأنه رفض في البداية تقديم بعض التراخيص والعقود، بحجة أنه يريد أن يحافظ على أسرار الأعمال التجارية، وعلى الأرجح- كما شكَّك كلٌّ من سالي وغلادكوف- فإن الوثائق تظهر المتورطين بجمع المال مقابل المعاناة التي تعيشها المدينة.

لم يوضح بوتين كيف حدث اختيار المتعاقدين، ولا من كانوا، لكنه دافع عن نفسه بعدوانية، ومَثُلَ أمام المجلس عندما استُدعي، وعقد مؤتمرًا صحفيًّا لدحض هذه الاتهامات[23]، وأبدى انزعاجه من فكرة الرقابة التشريعية، عادًّا التحقيق ليس أكثر من هجوم بدوافع سياسية على سلطة رئيس البلدية.

في يوم 30 مارس/آذار، بعد نحو ستة أشهر من انهيار انقلاب أغسطس/آب، صوت المجلس للإطاحة بسوبتشاك على أساس أن الفساد يتغلغل في حكومته، واشتملت الأدلة فضيحة الغذاء، وكان المجلس أيضًا يجمع قائمة من مئة من الممتلكات نقلها سوبتشاك وحوَّلها إلى رجال أعمال أجانب ومحليين، ولكن أخفقت جهودهم؛ لأن المجلس ليس لديه سلطة قانونية واضحة لعزله، وتجاهل سوبتشاك التصويت في المجلس[24].

حضر بوتين مرارًا للدفاع عن نفسه وعن رئيسه، ورفض النقاد ووصفهم بأنهم «هؤلاء الناس الجدد الأبرياء»، وأكد أن فريق سوبتشاك يتألف من أناس «يعرفون الزر الذي يجب أن يُنقَر لإنجاز الأمور»[25]، وكان عليه أن يعترف بأن جميع المتعاقدين تقريبًا أخفقوا في تقديم الغذاء، وأعرب عن أسفه لأنهم كانوا شركات وهمية ومخططات هرمية بعيدة عن متناول المحاكم، مع أن مسؤولية لجنته كانت التفاوض على العقود في المقام الأول. وكانت بعض الشركات المصدِّرة تغلف المواد وتطويها لتظهر غامضة المصدر، ومن المفترض أنهم أخفوا ملايين الدولارات في المصارف في الخارج. ومع ذلك أصبح بعض رجال الأعمال الذين حصلوا على عقود من المقربين لبوتين، ومن بينهم يوري كوفالتشوك وفلاديمير ياكونين،

اللذان كانا يديران الشركة الجديدة التي حصلت على ترخيص لتصدير الألومنيوم والمعادن غير الحديدية. وذهب آخرون إلى شركة تدعى نيفسكي دوم، التي يسيطر عليها فلاديمير سميرنوف، وإلى فرع تصدير في مصفاة تحمل اسمًا غير عملي هو (**Kirishinefteorgsintez**)، وهي إحد الشركات التي كان جينادي تيمتشينكو من أصحابها المؤسسين.

لم يواجه أي من هؤلاء الرجال أي تهمة في وقت سابق، وعلى الرغم من أنهم كانوا غير معروفين في ذلك الوقت، فإنهم تربَّوا بجانب مسؤول شاب في مكتب رئيس البلدية، وسيصبح بعد سنوات من عمالقة رجال الأعمال في روسيا الجديدة.

لم يَثبت أن بوتين نفسه استفاد من الصفقة، على الرغم من أن بعضهم، مثل مارينا سالي، رأى أنه يشتبه في كونه مستفيدًا، ولكن الناس من حوله استفادوا جليًّا، وهو النمط الذي سيتكرر في السنوات المقبلة. بدت تفسيرات بوتين مخادعة، وبدلًا من المطالبة بفتح ملف تحقيق، تهرب بوتين من الجزء الأكبر من الأسئلة، وأشار بقوة إلى أن أعضاء من المجلس نفسه أرادوا العقود لأنفسهم، ولا يريد أن يكون «رجل الـ(كي جي بي) الحشري المتشدد» الذي يسلمهم[26].

توقف تقرير لجنة التحقيق لحاجته إلى دليل دامغ يثبت تورط بوتين وأنيكين بالفساد، لكنه وجَّه لهم التهمة «بعدم الكفاءة الكاملة، المشوبة بسوء النية»، وأحالت اللجنة القضية برمتها إلى مكتب النائب العام، ودعت رئيس البلدية لإنهاء خدماتهما معًا[27]، وقد سافر فريق من المحققين من غرفة التدقيق الاتحادية إلى بطرسبورغ للتحقيق، ولكنه لم يوجه تهمًا[28].

لطخت هذه القضية بوتين بفضيحة لأول مرة، ولكنها حفظت في الأدراج ما يقرب من عقد من الزمان، أما أنيكين فقدَّم الاستقالة، وحل محله ألكسي ميلر، وهو خبير اقتصادي من الشبان، وأصبح من أقرب مساعدي بوتين. وبدل أن يعاقب سوبتشاك بوتين عيَّنه نائبًا لرئيس البلدية، وتركه في مهمة تحقيق أعظم هدف له: جذب المستثمرين الأجانب إلى المدينة.

حقق بوتين نجاحًا أفضل في هذا المسعى، بسبب وضعه المهني في الـ (كي جي بي)، من جانب، ومن جانب آخر بسبب اتصالاته وتمكنه من اللغة الألمانية التي فتحت الأبواب للمستثمرين من ألمانيا الموحدة حديثًا. حتى الكازينوهات وعقود الأغذية أصبحت غارقة في الجدل. سافر بوتين مرة أخرى إلى ألمانيا- وهذه المرة إلى فرانكفورت- للكشف عن المؤتمر المصرفي الدولي في بطرسبورغ، وهناك فاوض على افتتاح أول بنك أجنبي روسي في المدينة؛ وهو بنك دريسدن. وكان الرجل الذي أرسل لإدارته ماتياس وارنيغ، ضابط جهاز أمن الدولة السابق الذي كُلّف بالعمل مع الـ(كي جي بي) في دريسدن في أكتوبر/تشرين الأول 1989م، وكانت ألمانيا الشرقية تشهد احتجاجات في ذلك الوقت[29]. كلاهما ادعى أنهما التقيا للمرة الأولى في بطرسبورغ، وعلى الأقل في مناسبة في يناير/كانون الثاني 1989م، فقد ظهرا معًا في صورة تجمع ضباطًا سوفييتيين وألمانًا من جهاز أمن الدولة مع صديق لبوتين يعمل في استخبارات التقنيَّة العالية في دريسدن؛ سيرجي شيميزوف[30]، والثلاثة تشابكت حياتهم المهنية والشخصية، وهم من المحاربين القدامى الذين يتشابهون في التفكير، ويعبُرون معًا هذا التحول المضطرب إلى نموذج اقتصادي جديد عملوا جميعًا طوال حياتهم ضده.

افتتح مصرف دريسدن في يناير/ كانون الثاني عام 1992م، وذلك بهدف خلق البنية التحتية المالية اللازمة لدمج الاقتصاد الروسي في السوق الألمانية، والمساعدة على خصخصة مؤسسات الدولة السوفييتية الواسعة، والشركات العملاقة شاقوليًّا التي من غير المرجح أن تتكيف بسرعة مع قوى السوق، أو إعادة هيكلتها. وكان أولُ مشروعٍ مساعدةَ مصنع كيروف، الذي يعاني اليوم خطر الإفلاس، ويهدد بصرف الآلاف من العمال الذين دعموا سوبتشاك خلال الانقلاب عام 1991م. بالنسبة إلى دريسدن كانت رهانا محفوفًا بالأخطار على مستقبل روسيا. لم تكن مالية بطرسبورغ في حالة فوضى فحسب، بل كانت أيضًا قوانينها وتنظيماتها والرقابة فيها؛ فالاقتصاد بأكمله، والبلد بأكمله، في حالة من الفوضى، ويزداد سوءًا، حتى إن كبير الاقتصاديين في المصرف، إرنست- موريتز ليب، قال بعد بضعة

أشهر، موضحًا قلة الخبرة في مجال الخدمات المصرفية والمالية: «حقًّا يجب أن نبدأ من آدم وحواء في سانت بطرسبورغ، ربما هناك 10 أشخاص فقط قد يكون لهم تأثير»[31].

قدم بوتين نفسه واحدًا منهم، وقد يكون الاستثمار المبكر في دريسدن مكافأة للمصرف، وتحذيرًا كبيرًا لقادم السنوات. وأعقب مصرف دريسدن المصرف الألماني ومصرف باريس الوطني، وكريدت ليونيه. وبدأ صانع الحلوى الإسباني تشوبا شوبز بصنع مصاصات في بطرسبورغ عام 1991م، وفتح أوتيس للمصاعد فرعًا له، متوقعًا تجديد المباني العتيقة في المدينة، وافتتحت شركة بروكتر وغامبل، التي دعت سوبتشاك إلى مقرها الأمريكي في العام قبل الماضي، مكتبًا لها في المدينة بعد الانقلاب مباشرة.

استمتع سوبتشاك بدوره أبًا للمدينة، ولكن بقي بوتين في الخلفية، يتفاوض على الصفقات مع الأجانب، ويدخل في التفاصيل، وقد قال عنه كاج هوبر، وهو محام سويدي من الذين تعاملوا معه بعد ذلك: «فلاديمير بوتين كان الشخص الذي ينفذ ما يريده سوبتشاك». هوبر قضى أسابيع يتفاوض لبيع أحد معالم المدينة، جراند هوتيل يوروب، البيع القسري الذي فرضه قانون الضرائب المرهق الذي يعتقد كثيرون أنه كان عليه أن يمهِّد الطريق لمالك مفضل آخر. وقد وصف هوبر بوتين بأنه مفاوض عنيد «لا يتنازل إلا عن الشيء اليسير في محادثاتهما»، وأضاف: «وبدا بكل تأكيد أنه يفعل ما يمكنه فعله وفي الوقت المحدد، وهذا يمثل مصالح سان بطرسبورغ»[32].

سياسة الاقتصاد الكلي كانت مثار الجدل حول (العلاج بالصدمة) لإحياء الاقتصاد الروسي، وهي مهمة بوريس يلتسين ووزرائه في موسكو، ولكن سوبتشاك يريد أن يجعل من مدينته إحدى أكثر المدن صداقة مع المستثمرين الأجانب في البلد بأكمله.

أشرفت لجنة بوتين على الانتهاء من كابل الألياف البصرية إلى الدنمارك، وهو مشروع بدأ خلال الحقبة السوفييتية، وقد زوَّد المدينة بأول اتصالات هاتفية دولية حديثة، وافتتحت اللجنة في وقت لاحق المناطق الصناعية للمصانع الخارجية، من ضمنها هاينكن، وبيبسي،

وكوكا كولا، وفورد، وريجلي. وكان سوبتشاك- بمساعدة بوتين- قد أعاد فتح (النافذة على الغرب) التي كان بطرس الأكبر يتصورها أن تكون عاصمته. يسافر رئيس البلدية بانتظام للخارج، في كثير من الأحيان مرتين في الشهر أو أكثر، ويحرص على سمعته الدولية كحرصه على عمله، وتابع أيضًا تقديم المشورة ليلتسين في موسكو، ويخصص الساعات ورأس المال السياسي للمساعدة على كتابة الدستور الجديد لروسيا، الذي أقرَّ عام 1993م.

ترك سوبتشاك الإدارة اليومية للمدينة لنوَّابه، من بينهم بوتين، الذي بعد نجوميته الخاطفة على التلفاز أخذ يميل إلى العمل من دون ضوضاء، أو تمحيص، وتجنب دائرة الاختلاط والحياة الاجتماعية الدبلوماسية. وقد اشتكت ليودميلا بأنه يعمل ساعات طويلة، ويعود إلى منزله في وقت متأخر من الليل، في حين تبقى هي في شقة والديه مع الأطفال. ونادرًا ما كان لديه وقت للأصدقاء مثل رولدغن، حتى عندما يلتقون كان يشعر رولدغن بأنه غارق ومشغول بشؤون المدينة[33]، لكن عمله الجديد- (الحياة المدنية)، كما وصفها- ممتع، ومثَّل له تحدِّيًا، فبعد أن كان ضابطًا يجمع المعلومات ويمررها إلى الرؤساء ليتخذوا القرارات السياسية، بات اليوم هو الذي يتخذ القرارات[34].

زاد بوتين من سمعة كفاءته وفاعليته، وولائه المطلق لسوبتشاك، في حين أن الآخرين الذين عملوا لرئيس البلدية سرعان ما تركوا العمل وبصورة حادة على الأغلب، أما هو فبقي يعمل بثبات إلى جانب سوبتشاك، وقد تنامى نفوذه وسلطته، حتى عندما كانت تحوم الاتهامات بالفساد حول إدارة المدينة.

كان بوتين في العمل متحفظًا، بل ومتجبرًا، ونادرًا ما يظهر مشاعره أو تعاطفه، على النقيض من السجالات السياسية العاصفة الجارية في البلاد. وتستذكر أمينة سره، مارينا ينتالتسيفا: «قد يكون صارمًا ومتطلبًا، ولكن لم يرفع صوته قط، وكان إذا أُعطي مهمة فلا يعبأ كيف ستنفذ، أو من الذي سينفذها، وما المشكلات التي تعتريها؛ بل المهم أن ينفذ هذا الواجب، فالعمل هو العمل»[35]. وعندما أخبرته ينتالتسيفا ذات مرة أن سيارة دعست كلب

الأغنام القفقازي الذي جاءت به الأسرة أخيرًا، ذكرت أنها صُدمت من غياب أي ردة فعل له على الإطلاق.

أثبت بوتين أنه يتعامل على قدم المساواة في حواره مع المستثمرين والسياسيين الذين تدفقوا إلى سمولني باحثين عن صفقات، وفي كثير من الأحيان باحثين عن المساعدة عندما توشك الصفقات أن تتعثر في الاضطرابات التي ينعدم فيها القانون؛ لانتقال روسيا إلى الرأسمالية. كان بوتين الرجل الذي يمكنه معرفة ثغرات البيروقراطية والقوانين المبهمة، وقد كتب آرثر جورج، وهو محام أمريكي من الذين عملوا معه من كثب فيما بعد: «مع أنه كان المسؤول الرئيس عن التعامل مع المشكلات التي تواجه المستثمرين الأجانب، لم يشعر المستثمرون قط أنهم يعرفونه، أو كان لهم أذنًا مصغية، فقد اختار بوتين معاركه بعناية وتجنب الجدل، ويصعب على أحد أن يعرف حقيقة ما يجري في دماغه»[36].

أصبح بوتين المحرك والتاجر، يتوسط في الاستثمارات، ويحكم في النزاعات التجارية من خلال العلاقات الشخصية، والاتصالات، والتهديدات، وظل يسافر مع سوبتشاك أو وحده لجذب الشركات إلى عالم الرأسمالية المظلم ما بعد الشيوعية. أصبح (المُمَكِّن الرئيس) لاقتصاد المدينة، الذي يوافق على مئات التراخيص، والضامن لمشاركة الدولة في الثروة. وأصبح الحَكم في المنازعات التجارية في المدينة، ويعمل من وراء الأستار لتسوية الصراعات التي غالبًا ما تحولت إلى أعمال عنف، ولكن على الرغم من جهود بوتين وأحلام سوبتشاك، بدت بطرسبورغ متخلفة عن موسكو في معظم المؤشرات الاقتصادية، ومن ضمن ذلك الإنتاج، والاستثمار الأجنبي، والبطالة[37]. وأصبحت المدينة معروفةً بجريمتها؛ فالجرائم التي ترتكب بسبب العقود تمارسها عصابات متنافسة وتجار، وفي كثير من الأحيان بدوافع سياسية، وكانت السرقات الصغيرة من الأجانب متفشية، حتى إن السياحة تضاءلت بعد الدفق الأول المستوحى من انهيار الاتحاد السوفييتي وشدة التنافس.

تقاطُع الأعمال والجريمة المنظمة في بطرسبورغ، كما هو الحال في أماكن أخرى في روسيا، جعل بوتين قريبًا من بعض أعتى العصابات في المدينة، فشركة البوابات الذهبية، التي سجلها عام 1992م لصاحبها جينادي تيمتشينكو لإقامة ميناء نفطي، دخلت في صراع خطير مع عصابة، وقد تصاعد ذلك الصراع حتى إن بوتين أرسل ابنتيه، ماشا وكاتيا، إلى ألمانيا حفاظًا على سلامتهما، إلى أن تهدأ الأمور[38].

ارتباطات بوتين، من خلال لجنة الشؤون الاقتصادية الخارجية، التي رآها بعضهم أنها ارتباطات شخصية، أوقعته في شرك اتهامه بالإجرام، والشركة التي سجلها مع فلاديمير سميرنوف في عام 1992م، شركة سانت بطرسبورغ العقارية القابضة، خضعت للتحقيق بتهمة غسل الأموال، وقد اغتيل أحد أعضاء مجلس إدارتها، ميخائيل مانيفيتش، في وقت لاحق برصاص قناص في وضح النهار، في شارع نيفسكي بروسبكت. هذه الشركة المعروفة من اختصارها الألماني بـ SPAG، لفتت انتباه المحققين في ألمانيا في وقت لاحق، وكان ليختنشتاين هو الذي اشتبه في أن الشركة تمارس غسل الأموال، ومن ذلك عائدات تعود لعصابة كالي للمخدرات في كولومبيا، وكان بوتين تسلَّم مجلس إدارة هذه الشركة لسنوات[39].

كذلك منح بوتين ترخيصًا لشركة أخرى، هي شركة وقود بطرسبورغ، التي تضم أيضًا سميرنوف، والزعيم المعروف بالجرائم من عائلة تامبوف، فلاديمير كومارين، الذي عرف بأنشطته القذرة في التسعينيات، وأطلق عليه (حاكم الليل)، وقد حصلت هذه الشركة على وكالة حصرية لتوريد البنزين إلى المدينة[40].

على الرغم من قربه من السلطة، والسيطرة على المعاملات الحكومية التي تقدر قيمتها بملايين الدولارات- وهي مبالغ لا يمكن تصورها لضابط مخابرات سابق صغير- لا يزال بوتين يعيش بتواضع، على الأقل ليس كما تباهى سوبتشاك، والجيل (الجديد) من رجال الأعمال الروس، الذين كانوا يجمعون بسرعة هائلة الثروات، ولا يظهر عليهم سوى النزر القليل.

ولكونه بمنصب نائب رئيس البلدية، فقد عُيِّن في المنطقة الريفية في زيلينوغورسك، التي كانت تتبع سابقًا للقنصلية الألمانية الشرقية، لا أقل، وعلى الرغم من أنه كان على بعد أكثر من ثلاثين ميلًا من مركز المدينة، فقد انتقل بوتين مع عائلته إلى هناك بدلًا من الاستمرار في العيش قريبًا من سمولني مع والديه. حصل بوتين في وقت لاحق على شقة في المدينة في جزيرة فاسيليافسكي، يقال إنها من سوبتشاك، الذي اتهم بنقل المئات من الممتلكات إلى أيدي القطاع الخاص، ثم شرع ببطء يعيد تحديثها.

عملت ليودميلا في الجامعة بتدريس اللغة الألمانية (على الرغم من أن لغتها الألمانية كانت بعيدة عن الكمال)، وكانت توصل الفتيات إلى المدرسة، وإلى حمام السباحة، وإلى دروس الكمان التي أُقرت بإصرار من سيرجي رولدغن. كانت حياة محمومة، ولكنها أكثر أمنًا لأي شخص يمكن أن يكون في روسيا في التسعينيات المضطربة، عندما كان كل شيء يبدو معطلًا ومعلقًا بخيط رفيع، حتى بالنسبة إلى بوتين وعائلته.

تبخرت النشوة السياسية التي أعقبت انهيار الاتحاد السوفييتي في غضون سنة تقريبًا، و(العلاج بالصدمة) الذي فرضته حكومة بوريس يلتسين لإدخال الرأسمالية أخفق في وقف انهيار الاقتصاد؛ وانخفض الناتج المحلي الإجمالي بأرقام مزدوجة في السنوات الأولى من العقد الجديد، وسعى يلتسين إلى السيطرة السياسية في مجلس نواب الشعب، ومجلس السوفييت الأعلى، ثم أقام في مبنى على ضفاف نهر موسكو المعروف باسم **البيت الأبيض**. في مارس/آذار 1993م فرض يلتسين الحكم الرئاسي، وأعلن أنه سيحل المجلس إلى حين الاستفتاء على الدستور في أبريل/نيسان وانتخاب برلمان جديد، وكان رد النواب أن صوتوا بتوجيه الاتهام له، ومع أنه نجا من التصويت، لكنه اضطر إلى التراجع. فاز بفارق ضئيل في استفتاء وطني على قيادته، ولكن التصويت لم يُجْدِ شيئًا لحل الصراعات السياسية والقانونية الكامنة على السلطة. وبحلول سبتمبر/أيلول أقال يلتسين نائبه ألكسندر رتسكوي، حين رأى فيه منافسًا له، غير أن النواب رفضوا قراره، ثم أعاد تعيين يغور غايدار، الأب

الإصلاحي للسياسات الاقتصادية التي أغضبت وأفقرت كثيرًا من الروس، وهذا التعيين كان نصيبه التجاهل أيضًا.

التوازن الذي لا يمكن الدفاع عنه، بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية في روسيا جديدة، وبين النظام الرئاسي والنظام البرلماني، وصل إلى حد الأزمة، وفي 21 سبتمبر/ أيلول تصرف يلتسين أخيرًا بحسم وبقوة، وعلى نحو غير قانوني؛ فألغى مجلس السوفييت الأعلى، ومجلس نواب الشعب، الذي كان قد عمل فيه غير مرة، وحدد موعدًا لإجراء استفتاء على الدستور الجديد الذي يؤسس برلمانًا جديدًا مع مجلس الدوما، ومجلس شيوخ جديدًا، ومجلس اتحاد يضم تسعًا وثمانين من المحافظات والجمهوريات التي تكوِّن روسيا في ذلك الوقت. أجريت الانتخابات في ديسمبر/ كانون الأول، وعبَّر يلتسين عن أسفه لأن رئاسته- وكان أول زعيم منتخب ديموقراطيًّا في تاريخ روسيا- لجأت إلى شركة فيات[41]. اجتمع غالبية النواب الحاليين في تحدٍّ للقرار، وأعلنوا رتسكوي رئيسًا، وطُرد وزراء يلتسين من الدفاع، والأمن، والداخلية، وحين صوتوا لإجراء انتخابات متزامنة للرئاسة والبرلمان، في مارس/ آذار عام 1994م، قطع يلتسين التيار الكهربائي وخدمة الهاتف والماء الساخن في البيت الأبيض، وتعاظمت الاحتجاجات العامة واستعد مشرعون للحصار، وبعد أربعة أيام من فرض طوق أمني على البناء أمر قوات وزارة الداخلية بتطويق المبنى.

في بطرسبورغ انحاز سوبتشاك بقوة إلى جانب يلتسين، وظهر على الهواء مناشدًا سكان المدينة بضرورة الامتناع عن المظاهرات أو الإضرابات، إلا أن نائب رئيس البلدية، فياتشيسلاف ششيرباكوف، انحاز إلى البرلمانيين المتمردين، وظهر في برامج التلفزة الإخبارية ليندد بمراسيم يلتسين، وبأنها «معادية لروسيا وغير دستورية»، فأقاله سوبتشاك فورًا، وأغلق مكتبه في سمولني. وقد ظهر عدد قليل من المتظاهرين خارج قصر ماريانسكي، ولكن ليس بالأعداد والحشود التي تجمعت حول البيت الأبيض في موسكو.

كان مجلس المدينة في حالة من الفوضى، وظهر رئيسه ألكسندر بلياييف مع سوبتشاك في سبتمبر/أيلول داعيًا إلى الهدوء، ولكن مرَّر أعضاء المجلس ستة عشر قرارًا أو بيانًا ينتقدون مراسيم يلتسين، وقد سخر أحد الصحفيين من المجلس ومن «العصف الذهني المتهور» الذي يتحلى به في وقت الأزمة السياسية الخطيرة[42].

تحولت الاحتجاجات في موسكو إلى عنف، ويوم 2 من أكتوبر/تشرين الأول، اجتاح أنصار البرلمان الحصار الأمني للبيت الأبيض، وهذه المرة كانوا مسلحين، ومن الشرفة دعا رتسكوي إلى انتفاضة، وأعلن يلتسين حالة الطوارئ. في الليلة التالية استولت جماعات مسلحة ببنادق وقنابل يدوية وقنابل مولوتوف على مكتب رئيس البلدية، واقتحمت برج التلفاز أوستانكينو، وقطعوا بث التلفاز على الهواء عدة ساعات، وهناك جوبهوا بكتائب من ضباط الشرطة الداخلية، الذين قاتلوهم وأجبروهم على الفرار على الرغم من الخسائر الكبيرة في الأرواح، فقد قتل العنف هناك العشرات، وهو عدد أكثر بكثير من عدد القتلى في انقلاب أغسطس/آب 1991م. لم يُرَق الدم في شوارع موسكو على هذا النحو منذ ثورة 1917م.

أما الجيش الروسي فقد اتخذ لنفسه جانب المراوغة؛ إذ شرع قادته يشتكون من أن جنودهم منهمكون في جني موسم البطاطا الخريفية، ولا يمكن زجهم بأي قوة، غير أنهم خضعوا في نهاية المطاف لأوامر يلتسين بعد أن أصر وزير الدفاع بافل غراتشيف على أن يلتسين يأمر بتدخلهم[43]، فحاصرت الدبابات الروسية، فجرًا، البيت الأبيض، وحطمت المتاريس، وفي الساعة العاشرة، على مرأى ومسمع من كاميرات التلفاز، بدأت أربع دبابات على جسر نوفوارباتسكي بإطلاق قذائف على الطوابق العليا من المبنى، حيث قاد يلتسين من هناك مقاومة الانقلاب منذ عامين تقريبًا. احتل الجنود طوابق المبنى واحدًا تلو الآخر، واعتقل رتسكوي ورسلان حسبولاتوف، المتحدث باسم مجلس السوفييت الأعلى، وكان الاثنان حليفين ليلتسين، مع عشرات الآخرين، وهناك في البيت الأبيض قتل مئة شخص على الأقل.

لم تكن ولاءات بوتين موضع شك قطعًا خلال الأزمة؛ وقد لحق بسوبتشاك، وفي ليلة 3 أكتوبر/تشرين الأول، التقى رئيس البلدية في المطار مع مفرزة من الحراس تبين عدم الحاجة إليها[44]، وفي اليوم التالي، مع احتدام القتال في موسكو، وصل بضع مئات من المحتجين إلى مركز تلفاز بطرسبورغ، ولكنهم لم يدخلوا في مواجهة مع الشرطة الخاصة التي تطوق المبنى. واعتمد الاثنان والسبعون من أعضاء مجلس المدينة بيانًا أدانوا فيه أولئك الذين حرضوا على سفك الدماء في موسكو، دون أن يذكروا صراحة على من يقع اللوم في ذلك. وتمكن سوبتشاك من تجنب العنف في المدينة دون تدخل عسكري؛ وذلك لأن التمرد اقتصر على العاصمة من جانب، ولأن مكتبه لم يستغل إلا قليلًا من الفرص مع خصوم يلتسين في بطرسبورغ. وزارة الأمن بالمدينة- سليلة الـ(كي جي بي) التي تحولت في نهاية المطاف إلى جهاز الأمن الاتحادي، أو FSB- «اتخذت عدة تدابير تدعو إلى اعتقال المتطرفين الذين كانوا يخططون للاستفزازات، وتفجير الأشياء، أو محاولة زعزعة الاستقرار».

هكذا وصف بوتين في وقت لاحق أحداث أكتوبر/تشرين الأول 1993م، فقد يكون هناك محرضون أو قد لا يكون، جُهزوا للعمل في بطرسبورغ، لكن ما يهم بوتين أنه «لا توجد تلك الانقسامات التي كانت قائمة بين وكالات تمكين القانون في عام 1991م»[45]. وكان رئيس جهاز الأمن في سانت بطرسبورغ صديق بوتين القديم، فيكتور شيركيسوف، الذي تعهد بولائه لسوبتشاك منذ بداية الأزمة، ويضمن على الأقل أن تبقى السلطة الرئاسية في المدينة من دون عوائق. اعترف سوبتشاك في وقت لاحق أنه أرسل (فرقة من القوات الخاصة) إلى موسكو لمساعدة يلتسين على سحق التمرد الذي بات فيه ولاء الجيش له غير مؤكد[46]، ووصلت القوات في نهاية سبتمبر/أيلول، وعلى الرغم من أنهم لم يقاتلوا في البيت الأبيض، فإنهم شاركوا في طرد المتمردين من مكتب رئيس بلدية موسكو وفندق مير[47]. وقد أكدت الأحداث صواب قرارات سوبتشاك في وقت مبكر لتعزيز العلاقة مع الأجهزة الأمنية، كما عززت هذه القرارات قناعة بوتين أنه حتى في ظل الديموقراطية، والقانون والنظام، لا بد من الاعتماد على العمل الهادئ والفعال لأجهزة المخابرات.